دراسات :

نقترح على قرائنا الأعزّاء نصّ الدّراسة التي أعدّها الدّكتور إبراهيم بن مراد أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنّوبة (تونس) حول: "الإنتاج الإعلامي العربي بين اللّهجة العامية واللّغة العربية الفصحى". وهي الدراسة التي سبق أن قدّمها بمناسبة اجتماع اللّجنة العليا لشؤون الإنتاج الإعلامي العربي المنعقد في يوليو 2008 بجدّة، والذي صدرت عنه توصية بتعميمها على المحطات الإذاعية والتلفزيونية العربية كافة، ومن خلالها على المذيعين ومقدّمي البرامج الإذاعية والتلفزيونية للاسترشاد بما جاء فيها من توجهات. وأثار فيها مسائل تتّصل بالاستعمال اللغوي في البرامج الإذاعية والتلفزيونية العربية. وقد قسّم المحاضرة إلى عنصرين كبيرين: الأوّل في العلاقة بين اللهجات العامية العربية واللغة العربية الفصحى فبيّن اعتمادا على القرائن والأدلة أنّ العاميات العربية امتداد طبيعيّ للعربية الفصحى قد ظهرت في مرحلة معلومة من استعمال الفصحى فكانت مستوى من مستوياتها وليست هي باللغات المستقلّة الخارجة عنها؛ والعنصر الثاني في منزلة الفصحى والعامية في الإنتاج الإعلامي العربي وخصائص استعمالهما فيه، وقد بيّن المحاضر أنّ الغالب هو الازدواج اللغوي وأنّ العامية في هذا الازدواج مغلّبة على الفصحى وأنّ هذا التغليب للعامية قد أدّى إلى ظهور «لغة ثالثة» أصبحت تسمّى «العربية الوسطى»، وليست هي بالعامية الخالصة ولا هي بالفصحى الخالصة بل هي مزيج من المستويين تكثر فيه مظاهر الخروج عن معايير «الفصاحة» بمفهومها المتداول، ودعا إلى تدوين هذه «العربية الوسطى» ودراستها لإظهار الروابط بينها وبين الفصحى، وإلى التقريب بين العاميات العربية، وبين العاميات والعربية الفصحى في الإنتاج الإعلامي العربي، وتأليف قواميس تدوّن الاستعمال اللغوي في لغة الإعلام عامة وفي العربية الوسطى وكذلك في المستوى العامّي.

الإنتاجُ الإعلامي العربي بين اللهجة العامية واللغة العـربية الفصحى

أ. د. إبراهيم بن مراد

أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب

ـ جامعة منّوبة، تونس ـ

العلاقة بين العامية والفصحى في الإنتاج الإعلامي العربي تتنزّل في مسألة العلاقة بين الفصحى والعامية

1 ـ في الإشكالية المطروحة :

تتنزّلُ العلاقة بين اللهْجة – أو اللهجات – العامية واللغة العربية الفصحى في الإنتاج الإعلامي العربيّ في مسألة أعمّ هي العلاقة بين الفصحى والعامية في الوطن العربي؛ وقد شغلت هذه المسألةُ الناسَ طيلة القرن العشرين وما زالت تشغلهم وتثيرُ المواقفَ المختلفة المتباينةَ التي لا تسلم في أكثرِ الأحيانِ من آثار الأهْواء المذهبية، وهي مواقفُ تتراوحُ بين تعصّب للفصحى من منطلقات دينيَة وقومية، وتعصّب للعامية من مُنطلقات ثقافية وسياسية؛ وقد اقترنَ الموقفُ الأولُ بالدعوة إلى نبذ العامية نبذاً كليا، لما يؤدّي إليه استعْمالها من التفرْقة بين أبناء الأمة الواحدة الّذين توّحدُ بينهم – إذا اختلفتْ بهم سبُلُ التفاهُم والتّواصل – العربية الفُصْحى؛ واقتْرنَ الموقفُ الثّاني بالدعوة إلى إبْدال الفصْحَى بالعامية في الاستعمال العامّ، إما تيْسيراً لاستعمالَ العربية التي يَشْكُو نحوُها وتَصريفُها – في أذْهَان أصْحاب الموقف خاصةً – من التعقيد، وإمّا دفاعاً عن الخصوُصيات اللغوية والثقافية في البلاد العربية، وقد فُرضَتْ إثارةُ المسألة حتّى على المعتدلين من المثقفين العَربِ عندما ظهرت في النّصفَ الأولّ من القرن العشْرين مسألةُ «لغة الحوار» في المسرَحِ والسينما. وقد اقترَح بعضُ الكتّاب – مثل توفيق الحكيم وميخَائيل نعيْمة – حلاً هو استعمالُ «العربية الوسْطى» أو «العربية الثّالثة» التي تأخذُ من العامية ما يُقرّبها من الفُصْحَى وتأخذُ من الفُصْحَى ما يُقرّبها من العَامية؛ لكنّ هذا الحلّ لم يؤخذ به وحسُمِ الأمرُ بأن اتُّخذَت العَاميةُ لغةً للحوار في السينما، والعربيةُ الفُصْحَى لغةً للحوار في المسرح الأَدبيّ الذي يُؤلّفه مؤلّفون «حقيقيّون»، يكتبُون نُصوصاً مَسرْحية قابلة لَلتّمثيلِ وللقراءة معاً، لكنّ هذا المسرْحَ الأدبيَّ

القائمَ على «النّص» يكادُ يُصبح اليومَ من حديث الماضي بعد أنْ حلَ ّمحلّه «المسرَحُ الشعبي» الذي لا يُقْصَدُ منه غيرُ التّسْلية، وما يُمكن تَسْميتُه «المسرْح َالفرَدْي» الذي يَقُومُ على مُمثّل واحد يتَقَمّص ُأكثَر من شخصية واحدة، وقد يكونُ هو َذاتُه المؤلّف َوالممثّل والمخرج؛ وقد حُسِم َأمرُ اللغة في هذين النّوعيْن من العمَل المسرْحي ّأيضاً إذْ العاَمية هي لغة الخطاب فيهما. بل إن ّمن كتّاب الرّواية القَصصية العرب - مثل يوسف إدريس ويوسف السباعي وإحسان عبد القدّوسَ - مَن حمله ميلهُ إلى «الواَقعية» في الأدبَ على كتابة الحواَرِ بالعاَمية أيضاً.

على أن ّمسَأْلة العلاقة بين الفصْحى والعامية قد ازدادَتْ تشعّباً نتيجة الانتشار الواسع لما يُعرفُ بوسائل الاتصال الجماهيري ّ، وهي تعد ّوسائلَ جماهيرية لأنها لا تُوجَّهُ إلى طبقة المثقّفين وحدهُم بل إلى ذوي المستويات الثقافية الدنيا أيضاً. وأهم ّتلك الوسائلِ ثلاثٌ: هي الصحيفة أو الجريدة، والإذاعةُ، ثم ّالتلفزيون. والأولى يُطبَع فيها النصّ ّالمكتوبُ ليُقرأ، فهي وسيلةٌ مقروءة؛ والثانية يبُثّ فيها وبها النص ّالمكتوبُ أو الشّفوي ّليُسمعَ، فهي وسيلةٌ مسموعة؛ والثّالثة يبُثّ فيها وبها النص ّالمكتوبُ أو الشّفوي ّأيضاً، ليُسمعَ، وتبُث ّفيها وبها الصورةُ لترُى، فهي لذلك وسيلةٌ مسمُوعة مرئيةٌ معاً. على أن ّالغاية الأساسية من الكتابة في الوسيلة الأولى والبث ّعلى الوسيلتين الثانية والثالثة هي التبليغ أو الإبلاغُ، وللإبلاغ نفسه غاياتٌ تختلف بحسب الغاية من إيجاد الوسيلة ذاتها أو الغاية من بث ّنص ّما أو صورة ما فيها. على أن ّخلاصة تلك الغاياَت هي «التأثير». ومن هنا كان للّغة المستعملة في مُخاَطبة «المتلقّي» - سواءٌ كان قارئاً أو كان مُستمَعا أو كانَ مُشاهداً - دورٌ حاسمٌ في الإبْلاغ المؤثّر؛ لكن ّللتأثير نفسه غايات غيرُ معلَنَة في الغالب، منِ أهمهّا ثلاثٌ هي (1) «جلَبُ النّصير» في المذهَب، سوَاءٌ في السياسة أو في الدين أو في الفكر؛ (2) «الإمتْاَع»؛ (3) الإفاَدةُ. وأقدْرُ الوسَائل الثلاث على تحقيق هذه الغايات الثّلاث معاً هما الثاّنية - المسمُوعة، أي الإذاعة - والثالثة، المسموعة المرئية، أي التلفزيونَ. ومن هنا جاز التساؤل عن أي ّمسْتويَي العربية أعمْقَُ تأثيراً في المتلَقّي العربي: الفصَيحُ أم العامّي؟ ومن هذا المنطلق أيضاً كانتْ أهميّةُ القضيّة التي نرُيدُ مُعالجتهَا، وهي «الإنتْاجُ الإعلامي ّالعربيُّ بينَ اللهْجة العاَميّة واللغة العربية الفُصحَى».

2 ـ في أن ّالعربية العاَمّية َامتْدادُ ُطبيعي ّللعرَبيّة الفصُحْىَ :

نرُيد أن نبدأ النظر َفي المسألة بإقامة العلَاقة بين العربية الفصُحْىَ والعربية العامية لما لها من صلة وثيقة بازدْواجية الاستْعماَل اللغّوَي في المجتمعات العربية عامّة وفي الإنتْاج الإعلامي ّخاَصّة. ونود ّأنْ نرَجعَ بالمسألة إلى أصولها التاريخيّة. فإن ّهذا الربط الموضوعي ّبين مستويي العربية يقلّل في ما نرى من حدّة الخلاَف بينِ المواقف في النظر إليهما وخاصة إلى توظيفهما في الاستعمال في الإنتاج الإعلامي ّ.

في الغايات من التأثير بوسائل الاتصال الجماهيري

فلقدَ ظهر َمنذُ القرنْ الأول للهجرْة /السابع للميلاد مُستويَان من المتكلّمين بالعربية في جزيرة العرب نجد أثرهما واضحاً في أول نَص ّ مُدّون وصلنا في وصف العربية وقواعد استعمالها وهو «الكتاَب» لسيبويه الذي ألّفَ في النّصف الثّاني من القرن الثاني الهجْري /الثّامن الميلادي في وصف العربية المستعملة في ذلك العصر، يمثّل أوّلهما العرب الذين ترُْضَى عربيَّتُهم ويُوثَقُ بفصاحتهم[1]، ويمثّلُ الثّاني َالعرب الذين لا يؤُخَذُ بعربيّتهم لأنّها ردَيئة[2]؛ ومن هؤلاء الذين ضعُفَت ْعربيّتهُم منذُ وقْت مبكّر القبائلُ التي توُجدَُ في أطراف الجزيرة متُاخمةً للعجَم من الفرس والروم والهنود والأحباَش[3]. وقد غذّى هذا الخرُوُجَ عن «العربيّة التي ترُتضى ظهورُ «الـمولّدينَ»، وهم عربٌ لكنهّم غير خالصي النسّبَ، ثم ّ الاختلاطُ بين الشّعوب - وخاصة بين العرب والفرس ثم ّ الأتراك - في ظل ّ الدولة الإسلامية وخاصة في زمنَ بني العباس. وكان من أهم ّ نتائج هذا الامتزاج العرقي ّ في البيئة العربية أن ظهر َما أصبح َيعُرفُ بـ «لغات الأمْصار» أي اللغّة العربية كما تسُتعملُ في البيئات الإسلامية الـمُعرَّبة خارج َالجزيرة العربية، مثل العراق والشام ومصر َوبلاد المغرب[4]؛ وتفشّي اللحنُ، أي الخطأ في الاستعمال اللغوي، سواءٌ بين العامّة - وقد ألّفت كتبُ ٌكثيرةٌ في «لحْن العامّة»[5] - أو بين الخاصّة من المثقفين؛ ثم ّ ظهرت العاميّة مُستوًى من مسُتويَات الاستعمال في اللغة العربية. وقد كان ظهورُها في البيئة الثقافية العربية بالتدريج. فقد بدأت ْ لغةُ الموَلّدين تسُيطر في الاستعمال اللغوي ّ العام ّ بداية من النصف الثاني من القرن الثاني الهجري /الثامن الميلادي ّ ثم ّ قويتَ ْ في القرن الثالث /التاسع وكان من أهم ّ خصائصها إسقْاطُ الإعراب وحركاته وعدمُ احترام قواعد التصريف، بل أصبح َ احترامُ الإعرابِ والتّصريفِ في الاستعمال معَدْوداً من التّقعرّ ِفي اللغة حسب ما يسُتخلص من وصَف أبي عثمان الجاحظ للظاهرة اللغويّة في عصره، في النّصف الأول من القرن الثالث[6]؛ وقد أدّى ذلكَ إلى أن ابتعَدتَ العربيةُ عن المنوال البدوَي ّ الأعرابي ّ في الاستعمال العام ّ لأن ّ الكلام َحسب ذلك َالمنْوال صار َغير َمسُاَيرٍ لروح العصْر، و«توطّد َتماماً الحد ّ الفاصلُ بين العربية الفصُحْى التي صارت ْ منذ ذلك العهد لغةَ العلْم والأدب، والعربية المولّدة الدارجة، حوالي نهاية القرن الثّالث، حتّى في الأوسْاط المثقّفة»[7]؛ وكونْ العربية الفصحى أصبحت لغة العلم والأدب - أي لغةً مكتوبةً مقروءةً وليست لغةَ استعمال جاَرٍ - يعني أنّها صارت ْ تكُتسَبَُ بالتّعلّم وليس بتأثيرِ الوسطَ اللغوي ّ الطبيعي ّ الذي يوُجدَُ فيه المتكلّمُ أثناءَ نشأته.

ظهور لغات الأمصار ثم لغة المولّدين ثم العاميات أدّى إلى انحسار الفصحى

ويمكن أن نؤرّخَ لظهور العربية العاميّة إذنْ، باعتبارها مسُتوًى لغوياً مستقلاً، ببداية القرن الرابع الهجري ّ/العاشر الميلادي ّ؛ وقد تعامَل معها اللغويّون العربُ في القديم وفي الحديث - وخاصةً في القواميس اللغويّة التي ألّفوها - معاملةَ المستوى اللغوي ّ العربي ّ المستقل ّ؛ والمستوياتُ اللغويّة عندهم أربْعةٌ :

أوّلها الفَصيحُ الذي يُجعَل الأساسَ في تأليف كلّ قَاموس لغويّ، طيلة عصُور استعمال العربية إلى يومنا هذا، والفصيحُ - إذا قُورِنَ بالمَستويات الثلاثة التّالية - هو العَربيّ الذي تَواصلَ استعمالُه عبر العصور مُحافظاً على خصائصه الفصيحة الصوتيّة والصرفيّة والدلاليّة.

والمستوى الثّاني هو المولّدُ: وهو أيضاً عربيّ لكنّه من وَضْع المولّدينَ وخاصة للتعبير عن المسْتحدَث من المفاهيم والأشياءِ وخاصة في البيئة الثّقافية العبّاسيّة التي انفتحت على العُجْمة انفتاحاً كبيراً لأنها قد قامت بدعْم من الفرس الذين أتيحَ لهم أن يَشغلوا فيها المناصبَ السياسية العليا، ثمّ لأنّ الخلفاءَ فيها وخاصة في النّصف الثّاني من القرن الثّاني للهجرة والنّصف الأوّل من القرن الثالث - من زَمَن الرشيد حتّى زمن الـمتُوكّل (من 170 هـ786 /م إلى 247 هـ861 /م) - كانُوا يدعَمُون مظاهرَ التّحديثِ في الإدارة والجيش والثقافة، وقد بلغَ التحديثُ أوْجَهُ في زمَن المأمُون الذي جعل من نقل العلوم الأعجمية - وخاصة من اليونانية - إلى العربية مشروعاً من مشاَريع الدولة. وقد كان المولّدُ اللغويّ إذن ذا صلة بتلك العلوم التي سُميّتْ «علُوم العجَم» و«العلوم الدّخيلة»، وليس بذي صلة بما يُسمّى العُلُومَ الإسلاميّة»، وهي العُلُومُ المتّصلة بالكتاَب والسنّة، فإنّ المولّدات للتعبير عن المسْتحدَث من المفاهيم الجديدة في نطاق العلَوم الإسلامية - مثل علُوم الفقه والحديث والقراءات القرآنية واللّغة - كانت تُسمّى «ألفاَظا إسلامية» وكانت معَدودة من الفصيح؛ ويَغلِبُ المستوَى الثّاني إذن - أي المولّدُ - في كتاَبات المولّدين من الأدباءِ والعلُماء.

والمستوى الثّالثُ هو العاَميّ: وهو أيضا عربيّ، لكنّ العامةَ قد حرّفتْهُ لتطوّعه لحاجاتها في التّعبير فأخرجته عن فصاحته بتغَييرها له إماّ في الأصْوات وإماّ في الأَبنية الصرفية وإماّ في الدّلالاَت المعْجَمية.

والمسْتوَى الرّابع هو الأعْجميّ المقْترضُ: وهو ما دخل العربيةَ من اللّغات الأخرى وأدمِجَ فيها فكانَ «معُرّبا» إذا أخْضعِ لمقاييسها وخاصة المقاييسَ الصرفيةَ، وكان «دخيلاً» إذا استْعصىَ على الإدماَج فبقَي محُافظاً على كثيرٍ أو قليل من مظاهرِ عُجْمَته.

وقد قبل اللغويون العربُ من هذا المستوى الرابع ما عدُّ «أعْجَمياًّ أدبياًّ» أي ما ورَدَ منهُ في النّصوص الفصيحة مثل الشعر الجاهليّ والشعر الإسْلاميّ حتّى منتصف القرن الثّاني الهجريّ/الثامن الميلاديّ. وأما المستويان الثّاني والثّالثُ فقد كانَ الغالبَ عليهما الإهماَلُ: أما المولّدُ فلأنّه لم يصدرُ عن الفصحاء من العرب ثمّ لأنّه لا ينتمي إلى ماَ يُعرفُ بعصرِ الاحتْجاَجِ اللغَويّ الذي حدُّ بمنتصفَ القرن الثّاني الهجريّ في الحواضر وأواخر القرن الرابع في البوادي؛ وأما العاميّ فلماَ يغْلبُ عليه من التّحْريف والخروج به عن الاستعمال الفصيح. وقد كان مادةً لتأليف كتُب كثيرة في القديم قد عرُفَت بكتُب «لحنْ العامة» وأقيمَتْ على التنّبيه إلى وجُوهِ الخطإِ فيه وإلى وجوبِ تجنبّهِ في الاسْتعماَل.

مستويات اللغة أربعة:

- الفصيح

- والمولّد والأعجمي

- المقترض،

- والعامّي

وما يعنينا مماً تقدّم هو أنّ العامّية في البلاد العربية ليستْ لُغة مستقلّةً بذاتها كما يذهبُ إليه دُعَاةُ استعمال العاميّة بدلَ العربيّة الفُصحى لغةً في الكتابة، لأنها لا تكْتَسِبُ بأيّ حال من الأحْوال خصائصَ اللغة المستقلّة الصّوتيةَ والصرفيّةَ والدّلاليّة؛ بل هي في جوهرَها امتدادٌ طبيعيّ للعربية الفصْحى إذ هي مستوىً من العربية قديمُ الظهور فيها كما رأينا، والفرَقُ الأساسيّ بينها وبينَ الفُصْحى هو سقُوطُ حركَات الإعراب منها والتّصرّفُ في بعض قوَاعد التّصريف وخاَصة في استعمال اللوّاَحق الدّالة على الحالة الإعْرابيّة أو الدّالة على العَدَد وخاصّة المثنّى والجمعْ؛ أماّ أصواتَها وأبنيتُها الصرفية ومفُردَاتُها المعجّميةُ بدلالاتها فما زالت محافظةً على كثير من أصولها العربيّة القديمة، وما داخلَهَا من التّطورِ لم يخرُجْ عن قوانينِ التطور اللغّويّ التي عرَفتْها الفُصْحَى نفسُها[8].

3 ـ الإنتاجُ الإعْلاَمِيُّ العربيّ بين العاميّة والفُصْحى :

3 . 1 – الاستعماَل اللّغويّ ونوْع المخاَطَب :

إذا انطلقْنا من المقوُلة العربية القديمة «لكلّ مقَام مقَالٌ» لاحظنا أنّ نمطَ اللغة المستعملة في مقَام مّا يتحدّدُ بحسب نَمط المخاَطَب الذي يتُوَجّهُ إليه بالحديث. وقد كان المستمَعُ المتلقيًّ هو «المـخُاطَب» عندماَ كان الغاَلبُ على الإنتاج الفكْريّ العربيّ الشفويةَ وليْس الكتابةَ، وكان المنتجُ الرئيسيُّ الشاّعرَ الذي يلْقِي شعرَهُ في الحلقات العامة – في أماكنَ مثلَ سوُق عكاَظ – أو في البلاطات أمام أصحاب السلطان؛ ثمّ أصبحَ المخاَطَبُ القاَرئَ عندما انتشرَت الكتابةُ ووجُدَ الكتاّبُ من الأدباَء والعلُماَء الذين ألّفوُا كتُباً من أجل أن تقُرْأَ؛ وقد كانتَ اللغةُ المتُوَجّهُ بها إلى المخاَطَبِ في النوعين اللذيْن ذكرنا من الإنتاجِ هي العربيةَ الفُصْحى ولوْ كانَ الإنتاجُ من عمَلَ المولَّدين. وقد تطورَ الأمرُ في العَصرِ الحديثِ بظهور «وسائلِ الاتصال» وخاصة «وسائلَ الإعلام».

و«الاستعمالُ اللغوَيّ» في وسائلِ الإعلام في العصَرِ الحديث ذو وجْهين :

الأولّ يمثّلهُ الاستعمالُ في الصُّحف، وخاصة في الجرائد اليومية؛ والمخاطبَ بهذا الاستعْمال اللغويّ هو القارئ أيضاً لأنّ الصُّحُفَ – سواءٌ كانتْ ورقيةً أو كانتْ إلكترونيّة – وثائقُ مكتوُبةٌ موُجّهةٌ إلى القُرّاء. ومن أهمّ شرُوط «المخاَطَب القارئ» أن يكون قادراً على القراءة، أي أنْ يكوُن ذا معَرفة باللّغة التي تكُتْبُ بها الوثائقُ الّصحفية المنشورةُ، وهي في الغالب ما يعُرفُ بـ «لغة الّصحف» أو «لغة الّصحافة» التي تعدّ وسطَاً بين العربية الفُصحى بمَفهومِها القديم والعربية المولّدة. وقد شغل هذا الوَجهُ من الاستعمال اللغويّ في الصُحُف المثقّفين العربَ منذ أواسط النّصف الثّاني من القرن التاسعَ عشَرَ الميلاديّ لما لاحَظوُه فيه من خرُوج عماّ عرفوه من النّماذج الفَصيحة في الاستعْمال، وما تبيّنوُه من تأثيرٍ لذلك الاستعمْاَل المُحدَث في كتاباَت المنشْئِين.

وقد خُصَّ بالمقالاَت المفرَدَة وبالكتُب التي تندْرج في باب «التّصويب اللغَوي» الذي تنتمي إليه كتبُ «لحنِ العامّة» التي سبقَت الإشارةُ إليها، ومن أقدمِ هذه الكتُبِ في العصر الحديث كتابُ «لغةِ الجرائد» للشيخ إبراهيم اليازجي[9].

والوجه الثّاني يمثّل الاستعمال اللغَوي في الإذاعة والتلفزيون. والمخاطَبُ بهذا الاستعمال هو «المسْتمَع» بالنسبة إلى الإنتاج الإذاعي"، و«المسْتمِعُ المتَفَرّجُ» أو «المستَمِعُ المشاهد» بالنسبة إلى الإنتاج التّلفزيُوني". والاهتمَام بهذا الوجه الثّاني من الاستعمال اللغوي" متأخرٌ" لأنّه قد واكَبَ إنشاءَ الإذاعات ثمّ" التلفزيونات الوطنيّة في البلاد العرَبيّة وخاصّة في النّصف الثّاني من القرَن العشرين. لكنّ" التّأليفَ في هذا الصنف من الاستعْمالَ اللغوي ما زال ضعيفاً رغم مخالفته الظاهرة للغة الجرائد في استعمال وسيلة التَبليغ اللغويّة وقوّة تأثيره في الاستعمال اللغوي العام"[10].

2.3 - في الازْدواج اللغوي في الإنتَاج الإعلامي" العرَبَي" :

وما يعنينا من الاستعمال اللغوي" في الإنتاج الإعلامي" العربي"، الإذَاعي" والتّلفزيوني"، هو الازْدواجُ اللغوي" فيه، أي استعمالُ الفُصْحَى واللّهَجاَت العامّيّة معاً. ويختلفُ استعْمالُ العامية في الإذاعة والتلفزيون عن استعمالها في الجَرائد. فإنّ" الجرائدَ التي يحرّرُ كلّها أو جلُّها بالعامّية تعدّ" جرائدَ «شعَبية»، وهذه الصّفةُ وحدها فيها كافيةٌ لنبذها وعدمَ الاكتْراث بها بين المثقّفين. وأمّا استعمالُ العامّية في الإذاعة والتلفزيون فيعُدَ «رسَمْيّاً» لأنَّه يردُ على ألْسنة «الخاَصّة» من السّاسة وعلماءِ الدين وكبارِ الكتّاب والأدباء، إضافةً إلى الفنّانين وخاصة أصحَابَ الطربِ وصاحباته. وهذا يَعني - في مختلف الحالاَت - أنها من استعمَال المثقّفين. لكنّ" «المقامَات» التي تكُونُ «المقَالاتَ» فيها بالعاَمّيّة في الإذاعة والتّلفزيون كثيرةٌ. و«المقامَات» هيَ في الحقيقة البرَامجُ المنْتجةُ، وتُصنَّفُ تلكَ البرامجُ - في الإذاعات والتّلفزيونات ذاتِ النزعة الشمُوليّة - بحِسبَ أنْواعها الأساسيّة وأهدافها المرْجوّة منْها إلى سبعة، هي :

(1) البرامجُ الإخبارية.

(2) البرامجُ الثقافيةُ، وندرجِ فيها البرامجَ «الوثائقية» بأنْواعِها والبرامجَ الدينية.

(3) البرامجُ «التنْشيطية.

(4) البرامجُ الدرامية، وندرجُ فيها المسرحيات والأشْرطةَ السينمائية والمسلْسلاَت.

(5) برامجُ «المنُوّعات».

(6) برامجُ الأطفاَل، ومنها «الصور المتحرّكة».

(7) البرامجُ الرياَضيّة، ومنها بث" المقابلاَت الرياضية[11].

الغالب على الاستعمال اللغوي في الإنتاج الإذاعي والتلفزيوني هو الازدواج بين العامية والفصحى.

وإذا بحثنا عن منزلة كلّ من الفصحى والعاميّة في الأنواع السبعة من البرامج التي ذكرنا وجدنا منزلتيهما تتأثران بدرجة «الجماهيرية» في كلّ منهُما. فكلّما كان البرنامجُ «جماهيرياً» مُوجّها إلى الجمهور الواسع العريض من المستمعين أو من المشاهدين المستمعين كان الاستعمال اللّغويّ عاميّا؛ وكلما كان البرنامج «رَسَمياً» - مثل الأخبار بمختلف أشكالها - أو موجّها إلى جمهور مخصوص مثل البرامج الثقافية كان الاستعمالُ اللغَوِيّ فصيحاً[12]. ولذلك فإنّ أشدّ الأنوْاع السبعة التي ذكرنا عنايةً باستعمال المستوَى الفصيح من العربية هما الأوّل والثّاني، أي الأخبار والبرامج الثقافية؛ يتلُوهما الثالثُ والسادسُ اللذان تتنَافسُ فيهما الفُصْحَى والعاَمّية. فأنّ البرامجَ التنشيطية يَجتهَد منتجوها غاَلباً - حسبَ ما أوتوُا من المعرْفة باللّغة العربيّة وقوَاعدها - في استعمال التّعبير الفصيح، وإنْ كان النّوعُ الإذاعيّ المسمّى «تنشيطاً مبُاَشرَاً» تغْلبُ عليه العاَمّية لتعَاملُه مع ضرُوبٍ مختلفة من الناس، وأما برامج الأطفال فإنّ الفصحى لا تدخلها إلاّ من باب الصوَر المتحرّكة. وأمّا الأنواعُ الرابعُ والخامسُ والسّابعُ - أي الدراميّاتُ والمنَوّعاتُ والبرامج الرياضية - فإنّ الغالبَ على منُتْجيها استْعمالُ العاَمّية، فإذاَ استعملت الفُصْحَى فيها كانَ ذلك عرضا، كأنْ يكوُن العمَلَ الدرَّاميّ - السينمائيّ أو المسرْحيّ أو المسلْسَليّ - مكتُوباً بالعرَبية الفصحى، أو أنْ تغُنّى في منُوّعة ما قَصيدةٌ بالعربيّة الفُصْحَى، أو أنْ يمزجِ المعلّقُ الرياضيّ مزجاً اختياَرياً بين العاميّ والفَصيح في تعاَليقه.

تأثر الاستعمال اللغوي في الإذاعة والتلفزيون بثقافة المنتج

3.3 - من مظاهر استعمال الفصحىَ في الإنتاج الإعلاميّ:

يتأثّر استعمال الفُصْحَى إذا اعْتمُدتَ في البرامَج التي أشرنا إليها في الفقرة السابقة تأثّراً كبيراً بثقَافة منتجيها اللغوية؛ وهمْ عادة مختلفُو المستوَياَت الثقافية، متُفَاوتوُ المعرْفة باللّغة العربية؛ فإنّهم يتدَرّجوُنَ من الصحفيّ الذي لم يتَجاوزْ في تكوينه المدرْسَيّ أحياناً المرحْلَةَ الإعدادية - وهذا نجدهُ عند بعض «الموْهوبينَ» في إنتاجِ المنوّعات - إلى الأستاذ الجامعيّ الذي بلغ الرتبة العليا في التكوين العلميّ. ولكنّ «المقامَ» أثناء إنتاج برنامجَ ما للإذاعة أو للتلفزيون يفرضُ على المنتج «مقَالاً» معيّنا ولو كان أستاَذاً جامعياً. فإنّ المقامَ الذي يكون له وهو منتجٌ إذاعيّ أو تلفزيونيّ غيرُ المقاَم الذي يكوُنُ له وهو في الجامعة أمامَ طلبته يُلْقي محُاَضرة؛ فليس من حقّه في الإذاعة والتلفزيون أن يغُرْقَ في التّجرْيد وهو يفكّرُ أو أنْ يبُعْدَ في الفصاَحة وهو يعُبَرّ. وهذا «القيْدُ المقَاَميّ» في الإنتاج الإذاعي والتّلفزيوُنيّ قد أدّى إلى ظهورَ ما أصبحَ يعُرْفُ بالعربية «الوُسْطَى» في الإنتاج الإعلاميّ، وهي عرَبية فيها الكثير من المحافظة على قواعد العربية في الاستعمال لكنهّا لا تحترَمُ القواعدَ كلهّا احتراماً تاماً؛ وهي في الحقيقة شبيهةٌ بما كان الشيخ إبراهيم اليازجي قد سماّه «لغة الجرائد». فإنّ الرغبة في التبسيط لتحقيق الإبلاغ كثيراً ما تقربُّ المستوى الفصيح إذا استعمل من العامية،

ولذلك فإنّ العربية المستعملة ليْستْ بالعامّية لكنّها ليْسَت بالفَصيحة الخَالِصة. فإنّ فيها من مَظاهِر العُدول عَن النّماذج الفَصيحة القديمة في الاستعْمَال ما يجعلَها لغة «ثالثَةً» بينْ العَربية الفُصْحَى واللَّهْجة العامية. ومَظاهرُ العدُولِ فيها كثيرةٌ، وليس المجال هنا مجال النظر فيها والإحَاطة بها، ونكتفي بالإشَارة المُجْمَلة إلى بعض منها. فإنّ من تلك المظاهر[13]:

(1) ما هو نحويّ تركيبيّ، ومن أمثلته الكثيرة (أ) استبدالُ الجملة الفعلية في النّشرَات الإخبارية استبدالاً يكادُ يكُونُ مُطلقاً بالجملة الاسمية، ولهذا المظهر في الحقيقة مَا يبرّره لأنّ الأخبارَ - وإن كانت الغاية الأساسيةُ منها الإخبَار - لا تعتمَدُ فيها الجمْلةُ السّردية التي تكون عادةً فعليةً بل تعتمد فيها الجملةُ التقْريريةُ التي تكُون عادةً اسْمية؛ (ب) التّجوّز في تعدية الفعل : فإنّ الأفعال تُعامَلُ في التّعدية إلى المفْعول معاملة لا يضبطها ضابط أحياناً. فمن الأفعال المتعدّية إلى المفعول بحرف الجرّ في الاستعمال الفصيح ما يُعدّى في الإنتاج الإعلاميّ بنفسه (مثل «صرحّ أنّ» عوض «صرحّ بأنّ»)، ثم إنّ من الأفعال ما يستعملُ في الإنتاج الإعلاميّ متعدّيا إلى مفعولين بنفسه، رغم أنه يتعدّى في أصل استعماله الفصيح بنفسه إلى مفعول واحد، فإذا تعدّى إلى مفعول ثان تعدّى بحرف الجرّ (مثال فعل «أسْندَ فُلانًا جائزةً» عوض «أسند إلى فلان جائزةً»)؛ (ج) الفَصلُ بين المتضايفين بالعطف: فإنّ القاعدة في العربية أن يتَتابع المتَضايفان متُلازِميْن، ولذلك سمّي المضافُ مُضافاً إليه أي إلى المضاف الذي يتَقدّمهُ. لكنّ من الاستعمالات الشائعة بكثرة في الإنتاج الإعلامي بين المحدثينَ إضافةَ المضافين أو الثلاثة أو الأربعة إلى المضاف إليه الواحد، ومثاله قولهم: «أبلَغَهُ تحيّةَ وتقديرَ وإكبارَ أخيه الرّئيس»، والصوابُ أن يُسندَ المضافُ الثاني والمضاف الثالث إلى الضمير فيقال «أبلَغَهُ تحيّةَ أخيه الرئيسِ وتقديرَه وإكبارَه»؛ على أنّ هذا الاستعمال شائعٌ بين المحدثين عامّة.

(2) ما هو صرفيّ تصريفيّ، ونكتفي بالإشارة إلى مثال واحد ذي شيُوعٍ كبيرٍ هو منعُ ما كانَ على وزْن «أفعَال» من التنوْين في جمْع التكسير. فإنّ ممّا يكثر سماعهُ في الإذاعات والتلفزيونات العربيّة جملاً من نوع «أصابَت الطائراتُ المغيرةُ أهدَافَ مدنيّةً»، و«دوّتْ صفّاراتُ الإنذار في أنْحاءَ كثيرة من المدينة»، و«سيمرُّ كاتبُ الدولة الأمريكي للخارجية بأقطارَ كثيرة»، و«تباعُ الموادُّ الأوّليةُ بأسعْارَ منْخفضة». وقد عوملت جموعُ التكسير «أهْداف» و«أنْحاء» و«أقطْار» و«أسعْار» معاملةَ الممنوعِ من التنوين في حالتي النّصب والجرّ، وليس من موجب لمنع هذه الجموع ومثيلاتها في الصيغة من التنوين لأنّها تستعمل منصرفة.

(3) ما هو مُعْجَميّ دلَاليّ، وأهمّ ما يعبرّ عن هذا المظهر في الإنتاج الإعلامي العربي ما نسمّيه «التوليد الدلاليّ» القائم على الترّجمة الحرفية؛

من خصائص "العربية الوسطى"

والتّرجمة الحرفيّة هي الوسيلة التي تُعتمد في «الاقتراض الدلالي» الذي يختلفُ عن الاقتراض المعجمي الحقيقي، فإنّ هذا يكون بانتقال الألفاظ المقترَضة من لغة مصدر هي اللّغة المقْرِضة إلى لغة مورِد هي اللّغة المقترَضة، أمّا الاقتراض الدلاليّ فيكونُ بأن ينتقلَ المدلولُ أي المعنى دونَ الدالّ من اللّغة المقْرِضة إلى اللّغة المقْتَرِضة؛ وهذا المظهر ليس خاصاً في الحقيقة بالإنتاج الإعلاميّ بل هو كثيرُ الانتشار في العربية المعاصرة. لكنّ ما يستدعي الذكرَ منه هي النماذجُ التي تنتقل إلى العربية لكنّها تبقى غريبةَ الدلالة لأنّ نظام العربية لا يقبلها. ونذكر منها نموذَجاً قد شاع في وسائل الإعلام في تونس هو «مَناطق الظل»، وهي تَرجمةٌ حرفية لوحدة معجمية فرنسية مركّبَة أيضاً هي "Les zones d'ombre"، وهو مركّبٌ يُستعمل في الفرنسية للدلالة على الجهات الفقيرة المنسيّة التي بقيتْ في حالة فقرٍ لأنّها لم تنلْ حظها من الرقيّ الاجتماعيّ والحضاريّ؛ ويجوز أن تُطلقَ هذه التسميةُ على المناطق الفقيرة المنْسيّة في البيئة الفرنسيّة لما يقترن بكلمة "Ombre" فيها وفي ذهن الفرنسيّ من ظُلْمة وبرَدْ ونسيان نتيجةَ غيابِ الشّمس في وسَط طبيعيّ يغلب عليه انخفاض درجة الحرارة، فالكلمة في الفرنسيةِ إذن ذاتُ دلالة سلبيّة؛ أمّا «الظل» في العربية فكلمة ذات دلالة إيجابية في البيئة العربية وفي ذهن العربيّ نتيجة ما يتّصل بالظلّ من الاحتماء من القيظ وشدّة الحرّ في وسط طبيعيّ صحراويّ تغلب عليه الحرارة الشديدة. وإذن فإنّ لكلمتيْ «ظل» العربية و"Ombre" الفرنسية دلالتين مجازيتين مختلفتين اختلافاً شديداً، وذلك ما يجعل من «مناطق الظل» في مقابلة "Les zones d'ombre" ترجمةً حرفيّةً حاملةً للعُجمة الدلالية التي تختصّ بها الوَحدة المعجمية الفرنسية.

من المبالغة مطالبة المنتجين للمادّة الإعلامية بالتقّيد المطلق الصارم بالنماذج الفصاحية القديمة

4.3 - نحوْ تدوينِ «العربية الوُسْطى» المستعملة في الإنتاج الإعلاميّ ووصفها :

لم نذكرُ المظاهرَ المتقدّمة ممّا يمكن تسميته «العربيّة الوُسْطى» في الإنتاج الإذاعيّ والتلفزيونيّ العربي لنقدها وإظهار وجوه الخطإ فيها، بل أردنا بها التّمثيل لهذا الضرب من الاستعمال اللغوي الذي ما زال يلْقَى الاعتراضَ الشّديدَ من سائر المنادِين بالتّمَسّك باستعْمَالَ العربيّة الفُصْحَى حسب النّماذج الفَصاحيّة القديمة التي وصلتنا من «عصر الاحتجاج» اللغويّ، وليْس من العيْب في الحقيقة أن يتمسّك المثقّفُ العربيّ المعاصرُ بالمنْوال القَديم من الاستعْمال الفصيح وخاصّة إذا كان ذلك لا يخالفُ روحَ العصرِ ولا يؤدّي إلى استعْمال الغريب من التّراكيب والألفَاظ، لكنّ مبْدأ الالتزام بمقُولة «لكلِّ مقَام مقَال» التي كان كبَارُ كُتّاب العربية مثل أبي عثمان الجاحظ يتمَسّكُون بها ويَسْعَوْنَ إلى تطْبيقها فيما يكتبُون، يجعْلنا نرى في مذهبِ المؤلّفين في «التّصويبِ اللّغَوي» و«الأخطاء الشّائعة» إلى مُطالبة المنتّجين للمادّة الإعلاَمية في البرامج الإذاعية والتلفزيونية العربية بأنْ يتقيّدوا تقيّداً مُطلقاً صَارماً بالنّماذج القديمة التي تُعدّ فَصِيحَةً بِحقّ في الاستعْمال، ضَرْباً من المغَالاةِ والمبالغة.

ولا شكّ أنّ المطالبة باحترام الإعْراب وقواعده في كلّ «المقامَات» التي تُستعملُ فيها العربية ضروريةٌ لأنّ المكوّن الإعرابيَّ في اللّغة العربية يُعدّ من أهمّ نُظُمها الخصُوصية؛ فإنّ النظام اللّغويّ العامّ في اللغات الطبيعية يتأسّسُ عادة على مُكوّنيْن متُكَامليْن: أوّلهما هو المكوّن المعجْميّ وقوامُه المفردات وما يتعلّق بها من أصوات وأبنية صرفية ودلالات، وثانيهما هو المكوّن النّحويّ وقوامُه الجُملُ وما يتّصل بها من أنماط التّركيب والوظَائف الإعرابية التي تكون للمفردات فيها وعلامات الإعراب التي تتَحدّدُ بها وظَائفُها، والتَصريفُ وما يتّصل به من مقولات مثل مقولة العَدد ومقولة الزمن. ولقد مرّ المكوّنُ المعجميّ بتغييرات كثيرة خلالَ القرون الخمْسةَ عشرَ المنقضية من حياة العربية؛ كما عرف المكوّن النّحويّ تغييرات مهمّة وخاصّة في التّصريف وأنماط التّركيب. أمّا ما لم يتَغيّرْ فهو الإعْرابُ وما يرَتبط به من وظائفَ وعلَامَات، فإنّ الإعرابَ باقٍ على ما حدّده له من القوَاعد علماءُ البصرة في القرْن الثّاني الهجْريّ (الثامن الميلاديّ). وذلك يعني أنّ ما يوجد من خصوصيات تعبيرية في لغة الإنتاج الإعلامي العربي يمكن الفصل فيها بين ما يستجيب لقوانينِ التطوّر اللّغويّ وما لا يستجيب له؛ ويتَبيّنُ ممّا ذكرنا عن الإعراب أنه الوَجه الذي لا يتغيّر في نظام اللّغة، فيومَ يتَخاطبُ اثْنان فيرفعَ أحدهُما المفعُولَ وينصبُ ثانيهما الفاعلَ في الجملة سيضطرب بينهُما التفاهُم وينقطعُ التواصلُ بالعربية الفُصْحَى لأنهما قد خرجَا في تخاطبُهما عمّا اتّفقت عليه الجماعةُ اللّغوية التي ينتميان إليها. وأمّا ما عدا الإعرابَ فإنّه خاضعٌ للتطور؛ ويمكن أن ننظُرَ إلى مظاهر الاستعمال الملاحَظة منذ القرْن التاسعَ عشرَ في «لغة الجرائد» ثمّ الملاحَظة اليومَ في لغة الإنتاج الإعلامي السمعيّ والبصريّ من هذا المنظار. على أنّ هذا القبول يعدّ مرحلةً تالية لمرحلة أخرى أساسية لم تبْدأ بعدُ فيما نعلمُ هي مرحلة الجمع والتّدوين. فإذا جُمعت المادة «الإعلامية» جمعاً منُظّماً أمكنَ استغلالها في أكثر من وجه وخاصة(1) في تأليف القامُوس الإعْلاميّ الذي يشْتمل على ما سمّيناه «خصُوصيّات التّعبير» في المجال الإعْلاميّ: سواء كانت ألفاظاً عامّة ومصُطلحات أو كانت تعَابيرَ وترَاكيبَ؛ و(2) في وصْف مظاهرِ التطورِ اللّغويِ في العربية الحديثَة كما تبْرُزُ في الإنْتَاج الإعْلَاميّ[14].

مهما يكن التجديد في الاستعمال اللغوي العربيّ فإنّ المحافظة على "الإعراب" ضرورية.

5.3 - اللهْجة العاميّة في الإنتاج الإعْلَاميّ:

وإذا كانَ استعمالُ المستوى الفصيح في الإنتاج الإعلامي لا يثير قضايا عويصة لأنّ ما يتّصل به من الظواهر يندرج كما رأينا في باب التطوّر اللغْويّ فإنّ المستوى العامّي مثارٌ لمشاكل عويصة. وأولى المشاكل هي الحاجة إلى استعمَال العامّيات في الإنتاج الإعلاميّ، لأنّ من البرامج ما يُعدّ فيه استعمالُ الفُصْحَى تكلّفاً. وثانية المشاكل تعدّدُ اللّهجات واختلافها إذ إنّ لكلّ بلد عربيّ لهجته بل لهجاته، لأنّ المدينة العربية الواحدة أحياناً يُستعملُ فيها أكثرُ من لهجة واحدة؛

وثالثةُ المشاكل هي «المحلَيّة» التي تتّصف بها العامّيات العربيّة، فإنّ اللّهجات ممثّلةٌ عادةً للخصوصيات اللغَوية في الجماعَة التي تتكلّمها، ولا تنحصر تلك الخصوصياتُ في نظامٍ بعينه من نُظُمِ اللّغة بل قد تَشمَلُ الأصواتَ والتصريفَ والتراكيبَ ومفرْداتِ المعْجَم.

وليست المشكلة الأولى في اللهّجة أو اللهّجات ذاتها بل في الاضطْرارِ إليها في الاستعمَال. فإنّ استعمالَ اللهجْة حقيقةٌ اجتماعية وتوَاصُلية قد فرَضَها الواقعُ اللّغويّ العربيّ القائمُ على الازْدواجِ منذ زمن بعيد، أي على استعمْال مُستَويين من لغةٍ واحدة: هما الفصيحُ الذي يُستعمل في النصوص المكتوبة وفي مقَامَات مَخْصُوصة، والعامّي الذي يُستعمل في البيْت وفي الوسط الاجتماعي الواسعِ؛ وهذا المستوى الثّاني يُعدّ اكتسابهُ تلقائيّاً لأنّ المتكلّمَ ينَشأُ عليه في الوسَط العائليّ وفي الوسط الاجتماعي بين أفْراد الجماَعة اللّغوية الصغرى التي ينتمي إليها، وأمّا المستوى الفصيح فإنّه يُكْتَسَبُ بالتعّلمِ في المدرسة. لكنّ هذا الاختلافَ في اكتسابِ المستويينْ لا يعْني أنهما مختلفاَن الاختلاف الذي يكون بينْ لغتين منفصلتَين متُمَايزتَين بل هو الاختلاف الذي يكون بين نمطين من الاستعمال للغة واحدة، فإنّ العامّيات العربية كما بينّا في الفقرْة (2) من هذه الدراسة ليْست لغات منُفَصَلةً عن الفُصحى بل هي امتدادٌ طبيعيّ لها، والفُصحى ذاتها لا تُعَدّ بالنّسبة إلى المتكلّم العربيّ الذي يكتَسبها بالتعلّم في المدرسَة لغةً ثانية بل هي لغةٌ طبيعيةٌ. وإذن فإنّ استعمالَ اللهجْة في الحياة العامّة استعْمَالٌ اضطرارَيّ، وما دامت جزءاً من تكوّن المتكلّم اللّغويّ فإنّ استعمالها في برامج بعينها من الإنتاج الإذاعي والتلفزيوني يصبح اضطرارياً أيضاً. لكن ينبغي ألاّ نبُالغَ في الرّكُونِ إلى هذه الخاَصّية الاضطرارية فنكثّف من استعمال العاميّة؛ فإنّ استعمالَ الفُصحى في كلّ أنوَاع البرامج التي ذكرنا في الفقرة (3-2) مُمكنٌ، إمّا كلُياً وإمّا جزئياً؛ وهو كلُيّ وجُوباً في البرامج التي توُجهّ إلى الخاَصّة المثقّفة خاصّة، وهو مُمكنٌ جزُئياً في البرامج التي توُجهّ إلى الجمَاهير الغفيرة.

والمشكلة الثانيةُ - وهي تعدّدُ اللهّجات واختلافهُا - تطرْحُ على الاستعمال اللّغوي في الإنتاج الإذاعي والتلفزيوني قضيةَ العامّية التي تُستعملُ. فإذا كان البلدُ العربيّ الواحد يتكلّم لهجات مختلفةً اختلافَ الحضَرَ عن أهلْ الريفِ في بعض البلاد واختلافَ الحضَرِ عن أهلْ الرّيفِ وأهلْ الباَدية معاً في بلاد أخرى، بل واختلافَ الحَضرِ في مدينة ماّ عن الحضرَ في مدينة أخرى، كيف يمكنُ أنْ نَستعمل اللهّجةَ الواحدة في البلدَ الواحد، فضلاً عن استعمال اللهّجة الواحدة للجماهير العريضة في البلاد العربية كلهّا؟ **أيّ عامّية يمكنُ أن نستعمل إذن لتحقيق التواصل؟** ليس لأحد في الحقيقة أن يفرْضَ لهجتهَ على غيره لأنّ اللّغات عامّةً ومنها اللهّجاتُ لا تتفاضل فيما بينها ما دامت قادرةً على التبليغ؛ وكلّ جماعَة لغوية صغرى تتكلّم لهجة ضمنْ الجماعة اللّغوية الكبرى التي تتكلّم العربية فرَحَةٌ مُعتْزَةٌ بلَهجْتَها التي يتَحقّقُ بواسطتها التّواصل بين أفرادها.

لا تتفاضل اللهجات فيما بينها ما دامت قادرة على التبليغ

ولقد بدأت اللّهجاتُ العربية منذ الربع الأخير من القرن العشرين تنْحُو إلى التوّحد في الإنتاَج الإذاعيِ والتلفزيوني وخاصة في الأعمال الدرامية. والنّموذجُ المتّبعُ في كل ّلهْجة نَحَتَ ْ إلى التوحُّد هو النّموذَجُ الحضري ّالمستعمل في ا لعواصم خاصّة. فلم تبقَ بذلك اللّهجة المصرية وحدهَا مفهومةً يسيرة التداول بل عرُفَت لهجات أخرى مثل اللّهجة السوّرية واللّهْجة الكويتية. ومن الخطإِ القولُ إن ّلهْجةً عربية ماّ صعَبةٌ أو غامضةٌ غيرُ مفهومة لأن ّاللّهجات العربيةَ جميعهَا تتساوىَ في الأصْل لأنّها كما ذكرنا من قَبلُ امتدادٌ طبيعي ّللعربية الفصحى خاصّة وأن ّجل ّالمتكلّمين بها - في المشرق وفي المغرب على السواء - إماّ عربٌ خلُصٌ لأنهّم منْحدرُونَ من القبائل العربية التي انتشرتَ في البلاد التي فتُحت - مثل قبائل هلالَ وسلُيَمْ في بلاد المغرب العربي ّ- وإماّ مِن سكُاّن البلاد الأصَليّن الذين تعَرّبَت ألَسنتهُم منذُ وقْت مبكرّ وعوّضتَ العربيةُ لغاَتهِم الأصليّةَ. وإذن فإن ّاللّهجات العربيّة كلهّا تتَساَوىَ في قدُرَتها على التبّليغ. وإذا اعتاد المستمع المشاهد العربي سماعَها استطاع فهمها ومتابعة ما ينتَجُ بها. على أن ّاعتمادها محُوْجٌ في الحقيقة إلى تسهيل المعرفة بها لغير أهلها الأصليين، وخاصّة إذا كانت فيها خصوصيات معجمية ينبغي معرفتها مثل بعض الكلمات المحظورة التي تجوز في بلد ولا تجوز في بلد آخر، أو بعض الخصوصيات في تسميات الأشياء التي قد تحمل في لهجة ماّ اسماً يطُلق في لهجة أخرى على شيء آخر، وهذا كلّه يقتضي تأليفَ القواميس الواصفة للهجات العربيّة على اختلافها. فإذا دعَا داعٍ إلى الاستعاضة عن اللهَجات بلهْجة عربيّة معُيّنة كان الأوْلىَ أن تحُل ّالعربيّةُ الفصُحْىَ محَل ّاللّهجات جميعاً ما دامَتْ هي الأصلَ الذي صدرَتْ عنه، والأخذُ بالأصْل أوْلىَ من تفْضيلِ فرعْ على فرْع.

في ضرورة تيسير فهم العاميات العربية بالتعريف بخصوصيّاتها.

والمشكلةُ الثالثة صعبةُ الحل ّحقاّ لأن ّاللّهجاَت العربيةَ كلهّا مهما كبرُ عددُ المتكلّمين بها ليست إلا ّلهَجات محلّية؛ ولا يسَتطيعُ توَحيدُ مجموعة من لهجاَت ماّ في لهجة واحدة هي التي تستعمل في الإنتاج الإعلامي ّكما رأينا بكاَف ليخُرجِ لهجةَ البلد من محليّتها؛ ولذلك فإن ّكل ّإنتاج إعلامي ّعربي ّاعتمُدتَْ فيه لهجةُ البلد المنتجِ هو إنتاجٌ محليّ. وقد أدركت الإذاعاتُ والقنوات التلفزيونيَة الأجنبية التي تَستعمل العربية كليا أو جزئياً في بثهّا هذه الحقيقةَ فاقتصَرتَْ في ما تبَثّه من البرامج على ما أنتج ّبالعرَبية الفصُحْى. وهذا مدخلٌ آخرُ في الحقيقة لنقد الإقبال المكثّف على استعماَل العاَمّيات في الإنتاَج الإعلامي. فإننّا إذا أردنا للإنتاج العَربي ّالعاَلمية والانتشار الواسع خارج الحدود العربيّة وجبَ أن نفُضّل المستوى الفصيحَ فيه على المستوى العامي ّ، وإن كان المستوى الفصيحُ نفسه لا يخَولّ ُللإنتاج الفكري ّالعربي عامة أن ينتشر عالمياً ما لم يترُجْمَ. ومهما يكنْ من أمر فإن ّهذه المشكلة ترجعنا إلى طرح أفضليّة استعمال المستوى الفصيح من العربيّة على استعمال المستوى العامّي، وذلك بأن تسُتعمْلَ الفصُحْىَ - أو «العربية الوسُطْىَ» منها استعمالاً مكُثّفاً.

إذا أردنا للإنتاج الإعلامي العربي العالميّة وجب استعمال الفصحى فيه

العربية هي اللغة الحيّة الوحيدة التي حافظت على وحدتها فلم تتصدّع منذ أكثر من خمسة عشر قرنا.

4 ـ خاتمــة :

لعلّ ما من أهمّ ما يمكنُ أن يُنْتَهَى إليه من الحديث الآن - ونحن في آخر العَشْرِ الأولى من القرْن الحادي والعشرين - أنّ موضوعَ «الفُصْحَى والعامّية» لا يمكنُ أنْ يُفْصَلَ القَولُ فيه بيُسْرٍ لتجدّد المجالات التي تَستدعي الخَوْضَ فيه. ولقَد حُسِمَ القَولُ في العلاقة بين الفُصْحَى والعَامّية في المَجَال اللغَوَي اللّسَاني - وهو مجال علْمي - بعدَ أن تبيّنَ أنّ العامّيات عامّةً - في العربيّة وفي غيْرِ العربيّة من اللغّات - هي أشْكالٌ من الاستعمال اللغويّ متولّدةٌ عن لغات أصُول، وقد ولّدهَا في الغَالب «المجهُودُ الأدْنى» الذي يَبْذُلُهُ المتكلّمُ في كلّ اللغّات وهو يُنْجِزُ مقالاتِ الخطَاب. والمجهُودُ الأدْنى قَانونٌ لغويّ عامّ لا تسلَمُ لغة من تأثيره؛ ومن أهمّ مَظاهرِ تأثيره التغييراتُ المتعدّدةُ التي تَطْرأ على اللغّات في مكوِّناتها الصوتيّة والصرفيّة والدلاليّة. وهذا القانونُ هو الذي أدّى بلغات طبيعيّة قديمة إلى أن تنتقلَ من طوْرٍ قديم إلى طوْرٍ حديث يختلف عن الأوّل اختلافاً جوهرياً، فهذا ما حدث للغة اليُونانية التي يَعرفُ أهلُها أنّ هناكَ يُونانيةً قديمةً أو كلاسيكيةً ويونانيةً حديثة؛ وهو الذي أدّى أيضاً إلى ظهور اللغّات الرّوْمَنية (Langues romanes) مثل الفرنسية والإسبانيّة والإيطاليّة عن اللغة اللاتينيّة واستقلالها عنها، إذ أصبحَتْ لغات قائمةً بذاتها بعد أن كانت لهجات. وهذا الميلُ إلى المجهود الأدنى هو الذي أدّى في العربية أيضاً إلى ظهورِ ما عُرفَ بالعربية المولّدة في القرنين الثّاني والثّالث الهجريّين (الثّامن والتّاسع الميلاديّين) ثمّ العربيةِ الدارجة التي ستتفرَّع إلى عامّيات بدايةً من القَرْن الرّابع الهجريّ (العاشر الميلادي).
وقد كان يمكن للعربية أن يحدُثَ لها منذُ وقت مبكّر ما حدثَ للغة اللاتينية فتنفصلَ عنها العامّياتُ المتولّدة عنها لتصبحَ لغات مستقلّة؛ ولكنّ حزْمَ علماءِ اللغّة في التّصدّي للخروج عن المنْوال الفصيح - رغم أنّه أصبحَ يُكْتَسَبُ بالتعلّم - قد حافظ للعربية على استمراريّتِها في الاستعمال وحالَ دونَ انقسامها مثلما انْقَسَمَت اللاتينيّة.
ويمكن أن نعتبر العربيةَ اليوم اللغةَ العالميةَ الحية الوحيدةَ التي حافظت على وحْدتها في الاستعمال طيلة ما يزيدُ على خمْسة عشر قرناً. وقد استعملت العامّياتُ خلال أكثَر من أحدَ عشَرَ قرْنَاً إذا أرخّنَا لاستعمْالها ببدايةِ القَرْن العَاشرِ الميلادي؛ وإذا استثنينا الأزْجَالَ والموشّحَات الأنْدلسية والمغربيةَ ثمّ المشرقيةَ التي كانت تكتبُ كليّا أو جزئياً بالعامّية أمكَن لنا القَولُ إنّ استعمَال العامّية قد ظلّ منْحصراً في المنْطوق، محدوداً في الجماعات اللغَويّة الصغيرة التي كانت تتكلّمُها؛ ولم تُستَعْمَل استعْمَالاً جماهيريّاً واسعاً وتُكْتَب بها النّصُوصُ وتُقْرأ إلاّ في العصْر الحديث. ومن أهمّ المجالات التي فَرَضَت استعْمالَها وسائلُ الإعلام المسموعةُ والمرئيّة. ولا شكّ أنّ لاستعمالها المكثّف في وسَائلِ الإعلام دوراً في كسْر الحدود بينها وبين العربية الفُصْحَى والتّسَاهُل في التّعاملُ مع المظاهر اللغّوية الفَصيحة تسَاهلاً أدّى إلى ظهورِ ما سُمِيّ «العربيةَ الوُسْطَى».

ومهماَ يكُنْ من أمْر هذه العربية الوُسْطَى فلقدَ أصبحَتْ واقعا في الاستعْمَال اللّغوي ّالعرَبيِ ّالحديث؛ وليْس هذا الواقعُ بمؤثرٍ التّأثير َالذي يُخْشَى منه على العَربية الفُصْحَى التي تبقَى على مر ّالزّمَن عاملَ َتوْحيد بيْن العرب، ولعلَّها العاَملُ الوَحيدُ الذي وّحدَ بينَهُم عبرَ َالتّاَريخ. على أنّ العَربيةَ فيٍ لُغة الإنتاّج الإعْلامي ّفي حاجة إلى أنْ يُعْتنَى بها لتوحيدِها وتحديد استعمالاتها وإظهارِ ما يُوجد من علاقَات دلالية أو صرفية أو تركيبية بين ما يُستعملَ فيها من فصيح بمفهومه القديم ومن عربيّ ّيَنْتمي إلى العَربية الوُسْطَى، وهذا يتطلّبُ أوّلا ً تدوِينها وتأليفَ القوَاميس الخاصّة بمختلف مُكوّناتها. وكماَ لا يُخْشَى على العربية الفُصْحَى من «العربية الوُسْطَى» فإنّه لا يخْشَى عليْها من استعمال العامّيات أيضاً إذا خلّصنا استْعمالَ العاَمّيةِ من الغاياَت المذهبية واعتبرنا العامّيات مهما انتْشَرَتْ لهجات محلّيةً لا يمكنُ لها بَحال من الأحوال أن تحقّقَ العاَلمية لأيَ ّ إنتاج يُكْتَبُ أو يُبُث ّبها، وليْسَ تكرْيسهُا في الاستعْمالِ ولوْكثُرُ عدَدُ الذين يسَتعْملونها أوَ يفهْمَونها إلا ّ تكرْيساً للمَحلّية. ولا شكَ ّأنّ الرّغْبَةَ في الانتشار وتحقيقِ الجماَهيرية للإنتاج الإعْلامي ّ رغم المحلّية التي تبْقى السّمةَ َالغالبةَ َعلىَ ذلك الإنتاجِ يبرّران استعْمَالهاَ، لكنْ ينبْغي ألا ّيقتْرَنَ ذلك الاستعمالُ بتفَضْيلِ لهجْة عربية على أخرْى أوَ تفضْيلِ إنتْاجٍ على إنتْاجٍ بسبب اللّهجْة التيِ أنتْج بها؛ فإنّ ّ العاّميات العربية في الإنتاج الإعلامي ّليست في حاجة إلى المفاَضلَة بينها بل هي مثل العربية الفُصْحَى في حاَجة إلى تدَوْين خُصوصياّتهاَ، مثل الخصوصياّت المعجَميّة، والتعريف بها، بتأليفِ ما يتَطلّبهُ استعْماَلها من القوَاميِس.

المراجع :

1) ينظر سيبويه : الكتاب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1966-1977، 1/ 182، 1/ 304و 1/ 396 ، الخ. . .

(2) المرجع نفسه، 4/ 129، 4/ 196، 4/ 471.

(3) قد أشار إلى ذلك أبو نصر الفارابي في كتابه «الحروف»، فقد ذكر القبائل التي اعتمد عليها علماء البصرة والكوفة في جمع اللّغة ووصفها وهي قبائل قيس وتميم وأسد وطيء وهذيل وهم «من سكّان البراري»؛ وأمّا «الباقون فلم يؤخذ عنهم شيءٌ لأنهم كانوا في أطراف بلادهم مخالطين لغيرهم من الأمم مطبوعين على سرعة انقياد ألسنتهم لألفاظ سائر الأمم المطيفة بهم من الحبشة والهند والفرس والسرّيانييّن وأهل الشام وأهل مصر»، انظر أبو نصر الفارابي: كتاب الحروف، تحقيق محسن مهدي، دار المشرق، بيروت، 1969، ص 147.

(4) ينظر حول «لغات الأمصار» جميل سعيد وداود سلوم : معُجم لغات القبائل والأمصار، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1978، (جزآن).

(5) من أقدم الكتب التي وصلتنا في لحن العامّة كتابُ «ما تلحنُ فيه العامّة» الذي ألّفه أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي في القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، تحقيق رمضان عبد التوّاب، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1982.

العربية الفصحى هي العامل الذي وّحد ويوّحد حقّا بين العرب

(6) نجد نماذج كثيرة من لغة المولّدين في كتبه مثل البيان والتبيين والبخلاء، وقد عرض يوهان فوك عددا من تلك النماذج، انظر يوهان فوك: العربية، دراسات في اللغة واللهجات والأساليب، ترجمة رمضان عبد التوّاب، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1980، ص ص 119-128.

(7) المرجع نفسه، ص 149.

(8) ينظر حول كتب لحن العامّة وعلاقتها بالتطوّر اللغوي في العربية : عبد العزيز مطر : لحنُ العامّة في ضوء الدراسات اللغوية العربية الحديثة، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1966 .

(9) إبراهيم اليازجي : لغة الجرائد، القاهرة، 1905، وهو في الأصل مجموعة مقالات نشرها اليازجي في جريدة «الضياء» في خمسة عشر عدداً منها : من العدد 8 (يناير 1899) إلى العدد 22 (31 يوليو 1899).

(10) لا نعرف إلاّ كتابين لمؤلّف واحد قد اهتمّ فيهما صاحبهما اهتماما ظاهراً بالاستعمال اللغوي في الإذاعة والتلفزيون - إضافة إلى اهتمامه به في الجرائد - هما كتابا عبد العزيز مطر «أحاديث إذاعية في الأخطاء الشائعة» (قطر، 1985) و«تثقيف اللسان العربي» (القاهرة، 1991). وقد عنينا بدورنا بهذا الوجه من الاستعمال اللغوي في برنامجين إذاعيين بثُّا في الإذاعة الوطنية التونسية : الأوّل عنوانه «ثقافتنا اللغوية»، وقد استمرّ ستّ سنوات (من يونيو 1988 إلى مايو 1994)؛ والثاني عنوانه «لُغَوِيات» وقد استمرّ نصف سنة (من أكتوبر 1998 إلى مارس 1999)، ولم تنشر مادّة هذين البرنامجين في كتاب بعدُ.

(11) هذا التقسيم قابل دون شكّ للمراجعة، خاصّة وأنّ من البرامج ما يصعب تصنيفه مثل «الألعاب» ذات الطابع الثقافي والمنوّعاتي في الوقت ذاته، ومثل ما أصبح يعرفُ بـ «تلفزة الواقع» المنقول حديثاً إلى بعض التلفزيونات العربية من التلفزيونات الأوروبية، أو ما يمكن تسميته «التأهيل الغنائي» في ما يعرف بـ «ستار أكاديمي»، فإنّ الأوّل أدخل في برامج الألعاب لكنّه لا يخلو من جوانب «درامية» لأنّه «تمثيل واقعي» كما لا يخلو من «الترفيه» الذي يطلب من «المنوّعات»، وأمّا الثّاني فإنّه أدخل في برامج «المنوّعات» ذات الطابع الغنائيّ لكنّه في جوهره برنامج «مُسابقَات». ومهما يكن أمرُ تصنيف هذه البرامج الجديدة الوافدة على التلفزيونات العربية من التلفزيونات الأوروبية بالتقليد الواضح فإنّ أمر الاستعمال اللغوي فيها واضح وهو استعمال العامّية مُطلقا، باستثناء الألعابِ ذات الطابع الثقافي التي تمتزج فيها الفصحى بالعامّية.

(12) لا نعرفُ أنّ هذا التفاوت في المنزلة قد خُصّ بالدراسة في السنوات القريبة، والعمل الوحيد الذي نعرفه قد مرّ عليه أربع وعشرون سنة هو «الفصحى والعاميّة في الإذاعة والتلفزيون بالوطن العربي»، إعداد ياسر المالح، اتحاد إذاعات الدول العربية، تونس، 1984، وقد قسّم ما جمعَناه في سبعة أنواع من البرامج إلى اثنين وعشرين نوعاً (ينظر فيه الجدول رقم (2)، ص 44)؛ وأمّا ما عداهُ فمقالات مفردةٌ لم يخلُ بعضها من الآراء الانطباعية - ينظر خاصّة أيضاً الملفّ الذي خصصته مجلة «الإذاعات العربية» لـ «البرامج الإذاعية والتلفزيونية والمسألة اللغوية» (اتحاد إذاعات الدول العربية)، 2 (2002)، ص ص 26-72، وخاصّة مقال فريال مهنا: لغة الإعلام العربي بين الفصحى والعاميات، ص ص 29-41، وانظر أيضا رياض زكي قاسم: اللغة والإعلام، بحث في

العلاقات التبادلية، في : اللسان العربي وإشكالية التلقّي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007، (ص ص 123-144)، ص ص 136-140.

(13) بعض هذه المظاهر مذكور مع أمثلة في إبراهيم بن مراد : في مسألة الاستعمال اللغوي في البرامج الإذاعية والتلفزيونية، مجلة الإذاعات العربية، 2 (2002)، (ص ص 42-47)، ص ص 44-45؛ وتوجد نماذج عديدة من هذه المظاهر في مادة البرنامجين الإذاعيين «ثقافتنا اللغوية» و«لغويّات» اللذين سبق ذكرهما في التعليق (10) السابق؛ وقد كان اعتمادنا في المادة التي دوّناها على متابعاتنا لما يبثّ في مؤسسة الإذاعة والتلفزة التونسية وبعض القنوات التلفزيونية العربية الأخرى، في مصر وسورية ولبنان خاصة؛ كما نشير إلى أنّ عبد العزيز مطر في كتابيه «أحاديث إذاعية في الأخطاء الشائعة» (قطر، 1985)، و«تثقيف اللسان العربي» (القاهرة، 1991)، قد جمع مادة مهمّة من هذه الاستعمالات اللغوية الإذاعية والتلفزيونية.

(14) تمثّل الكتب والمقالات المؤلّفة في التصويب اللغوي الحديثة مادّة صالحة للجمع، لكن البحث الاستقرائيّ الدقيق يتطلب الاعتماد على النصوص «الحيّة» ذاتها سواء كانت صحفية منشورة في الجرائد أو كانت إذاعية وتلفزيونية مبثوثة. ونشير إلى أنّ من أهمّ البحوث الجامعية التي عنيت بالظاهرة اعتمادا على مدوّنة موسّعة بحثين أنجزا في جامعة منّوبة بتونس هما «مظاهر التوليد اللغوي في الصحافة العربية الحديثة» للحبيب النصراوي، وهو أطروحة أعدّت في نطاق شهادة التعمّق في البحث ونوقشت سنة 1997، و«التطوّر اللغوي في العربية الحديثة من خلال نماذج من كتب التصويب اللغوي» لمحمد شندول، وهو أطروحة دكتوراه نوقشت سنة 2005.